وشوشات الأنامل

حديث الروح

من تأليف الكاتبة: بهيليل فضيلة

اللوحات التشكيلية للفنانة: باهرة فتحية

بسم الله الرحمن الرحيم
دار ساجد للنشر والتوزيع.
الطبعة الأولى 1442 هـ 2021م.
الإيداع القانوني: جوان 2021.
ردمك: (0- 65 -810-9931-978) (ISBN).

اسم العمل: وشوشات الأنامل حديث الروح

للكاتبة: بهيليل فضيلة

اللوحات التشكيلية: باهرة فتحية

مدير(ة) النشر: صيام يمينة حرم برحايل.
المدير التنفيذي: عبد الحميد مشكوري.
تنسيق داخلي: آسيا براهيمي.
تدقيق لغوي: عبد الحميد مشكوري

صفحة الدار على موقع الفيسبوك:
FACEBOOK.COM/SADJED.EDITION
البريد الإلكتروني: SAJEDEDITION@GMAIL.COM
الهاتف/الفاكس:0541389203/033554911
الناشر: دار ساجد للنشر والتوزيع بسكرة .الجزائر

جميع حقوق النشر الورقي والإلكتروني والمرئي والمسموع محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ أو التعديل إلا بإذن من الناشر.

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف فقط ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الناشر.

قراءات إبداعية في لوحات فنان

وشوشات الأنامل
حديث الروح

من تأليف الكاتبة: بهيليل فضيلة
اللوحات التشكيلية للفنانة: باهرة فتحية

بين الريشة والقلم

الفن هو تلك النوتة من الجمال الذي يبهرنا كلما أصغينا إليه، هو حديث النفس العميق الذي تترجمه ريشة الرسام فينثر عبيرا من ألوان الحياة تتزين ببهاء لتخلد على لوحة، أو شيء منا، من آلامنا التي ننفثها فتزفر كلماتنا نصوصا إبداعية في قالب أدبي جميل، وبين هذا وذاك عوالم أخرى من السحر قد ندركها وقد لا ننتبه إليها غارقين في بحار هذه الحياة، لكن ماذا إذا ما اجتمعت الريشة والقلم ليقدما لنا شيئا آخر؟، رسم بنكهة السرد، أو حكايات نسجت من خيال لوحة فنية، تراها لو نطقت ماذا ستقول؟

التقيتها ذات صباح ربيعي في صدفة جميلة على طاولة شاي بمقهى المركز الثقافي ، لم يكن هناك كرسي آخر إلا ما كان بطاولتي فتشاركناها بمحبة، نحتسي كما اللقاءات الأولى أحاديث بسيطة بنكهة النعناع وسط رقص فناجين القهوة والشاي التي كانت تعبر بزهو باب المقهى الثقافي أو تعود مرهقة بعد أن أفرغت من محتواها أو كادت...

التقينا هناك ولم نعلم أن ذلك لم يكن بداية صداقة فحسب وإنما كان أيضا بداية اللقاء بين الريشة والقلم. "وشوشات الأنامل...حديث الروح" هي محاولة لمحاكاة لوحات

الفنانة التشكيلية القديرة " فتحية باهرة"، حاولت من خلالها استنطاق اللوحة، محاورتها، مشاركتها معانيها الظاهرة منها والخفية، ليس على شاكلة المقالات النقدية ولا القراءات العلمية المقننة، وإنما هي حكايات نسجتها انطلاقا من الأفكار التي جسدتها الفنانة فتحية بريشتها أو حكت لي عنها، عابرة الزمن والمكان، محلقة كما نورس مهاجر بحثا عن معنى جميل يسكن هذه اللوحة أو تلك . إنها وشوشات هادئة، تعبر حواسنا فلا تملك غير الإصغاء في خشوع لحديث الروح وخلجات الوجدان.

في النهاية ما الفن إلا ذلك الأثر الإنساني الجميل الذي نحاول التعبير عنه مستعينين بالريشة حينا وبالقلم حينا آخر ليلتقي هذا بذاك فيحدث الانبهار ويخلق الجمال وقد عانقت الريشة وبكل مودة صديقها القلم ليصنعا معا ثنائيا نتمناه ممتعا يبهج نظر المتفرج ويطرب أذن المستمع على حد سواء.. إنه ببساطة حديث الروح مرقوما بأنامل وشوشت معانقة بمحبة وشوق لوحة فنية، ليحاكيها قلم معجب مفتون بتلك الوشوشات.

د/ بهيليل فضيلة

يوم:2021/04/07

BAHRA
2020

"مشبك الحياة"

ها أنا منذ ساعات أقلب مواجع قلبي التي تركتها مركونة هنا، بخزانتي، لا زلت عاجزة عن حرقها رغم أني أتمنى نسيان بعضها، غير أن الابتسامات الجميلة التي رسمناها تردني وتمنعني، لا زلت أنا الغريقة أفتش وسط يمّ حيرتي عن شخص يسرقني ويأوي أوجاعي. وكعادتي أبدا دوما أقلب دفتر الذكريات الذي جمع حروف صديقاتي أيام الثانوية، صور تهاني، هدايا وعطور، كلها لا تزال تحافظ على أماكنها بانتظام.

صوت من خلفي أفزع سكوني رغم رقته ونعومته فالتفتُ بملامح مخطوفة، لم يكن هناك أحد، تمتمت أشكك في سمعي وفي عقلي، ربما من فرط التعب والقلق صرت أتخيل أصواتا لا وجود لها..

عدت لذكرياتي أجمعها بمشاعر متناقضة، وفي الفؤاد تتردد أبيات متفرقة راقني منها:

يوم كنا لا تسل كيف كنا   نتهادى من الهوى ما نشاء

ومرة أخرى عاد ذلك الصوت أكثر وضوحا، يقول:

-"لا تتعبي نفسك بحثا عن أجوبة لأسئلتك، الحلول ليست بعيدة فقط انظري حولك..".

كان الصوت القادم من خلفي نابعا من لوحة صديقتي فتحية ولا شك. أتراني أصبت بمس أو جنون؟ لم أقل شيئا كانت اللوحة تحلق في فضاء تلك الغرفة وأنا أرقب بذهول دورانها أعلى السقف قبل أن تستقر بإحدى الزوايا، لم يكن في اللوحة تفاصيل كثيرة غير امرأة تجلس على ركبتيها ووجهها باتجاه كتفها الأيمن كأنما أبحث عن شيء ما. لم أنتبه كثيرا لتفاصيلها الصغيرة أول مرة ، اكتفيت بإلقاء نظرة سريعة ثم أعدتها داخل غلافها الأول شاكرة صديقتي، الآن بدت ملامح المرأة أوضح وأقرب للحقيقة من ذي قبل، كنت أحاول التظاهر بعدم الخوف غير أن صوتي المبحوح والمرتبك فضحني وأنا أسأل بفضول من يحاول اكتشاف سر غامض:

-" و..لـ..كـ...ن، من تكونين؟".

لم أكد أكمل سؤالي حتى ضحكت تلك المرأة رغم نبرة الحزن التي كست ملامحها الخفية:

-" اسألي فتحية.. هي من تعرف الجواب".

كنت في سري قد فكرت فعلا في زيارة صديقتي لهذا السبب غير أن حديث اللوحة جعلني أنتعل الأسئلة طمعا في الظفر منها بجواب، كانت تلك المرأة السمراء التي لا ترسو ملامحها على شكل معين، تحاول استفزاز مشاعري فمرة تضحك ساخرة من أجوبتي ومرة تحزن لحالها ولحالي، وبين هذا وذاك تراقصت الأسئلة معلنة عن بداية احتفال. سألتها مرة أخرى بعد أن بدأ ارتباكي يتبدد وأنا أغوص بعالمٍ روحي، قلت:

-"لماذا تلتفتين بهذا الاتجاه؟ أتبحثين عن شيء ما؟".

لم ترد، بدا واضحا أنها مشغولة عني هذه المرة، تفتش كأنما عن شيء ضاع منها، قالت دون أن تلتفت إلي:

-"أفتش عن حلول لمشاكلي".

قالت ذلك وعادت مرة أخرى تلتحف صمتها دون أن تغير من جلستها تلك.

ودون سابق إنذار فتحت والدتي الباب بارتباك، تقلب نظرها بالغرفة وتمد بيدها هاتفي الذي كان رن دون ملل:

-" عزيزتي، هل أنت بخير؟".

ابتسمت شاكرة وأنا أدعي أنني بخير بينما بداخلي لم أكن كذلك أبدا. لا اللوحة هدأت وعادت لمكانها بالجدار ولا هواجسي سكنت وأنا أراها تحلق أمامي كجني يدور حول الأسئلة دون بساط سحري.

تساءلت سرا:

-" لماذا رسمتها فتحية بلا أية ملامح؟، لا عيون، ولا شفاه، لا أستطيع تمييز حالها أهي في فرح أم في حزن؟، لماذا تركتها هكذا غامضة تلبس كل الاحتمالات؟".

عادت المرأة الجالسة داخل تلك اللوحة تواصل فلسفتها في الحياة وتشرح لي دون أن أفهم ما تعنيه، قالت كلاما كثيرا عن المرأة، عن المعاناة النفسية التي تحبس كيانها، عن الضغوطات التي تمسح وجهها صباح مساء، عن الأحلام الكثيرة التي رسمتها لتدوسها أقدام حقد عملاقة لا يعنيها نجاحها في شيء، حدثتني كيف تموت المرأة هنا مذبوحة الأفراح، وكيف تقتل عمدا أزهارها الندية عطشا في أرض قاحلة لا مكان فيها إلا لنبتة الصبار...، حدثتني عن أمنياتها البريئة التي صادروها علنا، وخفية لعنوا أحلامها تلك.

كانت تحكي وقلبي ينفطر، لأول مرة منذ أهدتني صديقتي هذه اللوحة لم أر ملامح المرأة داخلها ولا حاولت فهمها. الآن تبدت جلية نظراتها حتى وهي خفية كانت تبكي بصمت مر، تحكي وبداخلي يتكرر مشهد ليلى والذئب، فمن المذنب يا ترى؟ ليلى التي مشت في طريق وحوش لا أمان فيه، أم الذئب الذي أغوته سذاجة ليلى وبراءتها؟...

جلست القرفصاء ودمعي على خدي يرتسم جدولا صغيرا، لم أكن أبكيها هي فحسب، بل كنت أبكيني أنا أيضا، أبكي تيهي وضياعي مثلها، أبكي أحلامي التي رغم بساطتها لم تتحقق، يقولون "كن مؤمنا بحلمك فعلى قدر إيمانك به يتحقق"، أتراني لم أكن مؤمنة كفاية بحلمي؟ أم أنه وجد بالمكان والزمان الخاطئين؟.

صمتت المرأة قليلا، وفجأة ارتسمت ابتسامة طفولية على ملامحها، أحسستها دون أن أراها...وراحت تردد:

-"وجدتها...نعم وجدتها".

سألت باستغراب: -"من؟".

قالت:

-" الحلول...وجدت الحلول ..لم تكن بعيدة عني أبدا...قلت لك ذلك منذ البداية".

قالت وهي تومئ إلي لأنظر بآخر كتفها، أين يتربع مشبك ملابس كان يحكم شد خمارها كي لا يسقط على الأرض. قالت:

-" هنا تكمن الحلول، أرأيتِ؟ لم تكن بعيدة عني أبدا، كان علي أن ألتفت حولي لأجد الحل بدلا من إرهاق نفسي في البحث بعيدا بين السراب..".

حاولت أن أسعد لسعادتها وأشاركها فرح اكتشاف الأجوبة لأسئلة أرقت تفكيرها، لكن شيئا ما خفي منعني، كنت كسائح في صحراء محى رمل العرق آثاره فلم يستطع العودة، لم أكن مثلها قادرة على النظر حولي لأجد الطريق.

انتشلني رنين هاتفي يضبط بإيقاعه صداعي ، كان ضجيج اللوحة قد هدأ بعد عثورها على الأجوبة، وقد عادت مرة أخرى لمكانها الأول بالجدار، في حركة آلية ضغطت زر الإجابة وأنا أعود من رحلتي تلك:

-" ألو.. أهلا فتحية".

جاء صوتك من هناك يسأل:

-"أين أنت؟ اتصلت بك مرارا دون جدوى، أنا بالمحطة أنتظرك، لا تتأخري".

أجبتك هذه المرة وكلي يقين يمحو القلق الذي سكننا لسنوات وجعلنا نعقد العزم على الرحيل:

-"لا داعي لأن نسافر إلى هناك... دعينا نفتش عن الإجابة هنا.. قريبا منا...".

ولأبدد دهشتك أضفت:

-" هكذا أخبرتني لوحتك قبل قليل.."

BAHRA
2021

"عبق من الماضي"

لم تكن لي وجهة محددة أرمي إليها الخطى، تائهة بين أزقة القصر القديم بحثا عن بقية نقاء تركه الأولون، رحت أعبر مسافات رمل عبرها الأجداد قبلي وأنا أتمنى لو أنني كنت معهم هنا... بهذه الديار الطينية قبل أن يرحلوا تاركين عطرهم مندسا بين تلك الأزقة والجدران التي تحكي مراسمها قصص من عبروا... قصص فرح وحزن.. شوق وحنين.. ظلت كوشم بالقلب وبالذاكرة.

كنت كلما تقدمت بين تلك الأزقة ارتفعت أصوات مرتاديها واختلطت ببكاء أطفال يعبرون بطريقتهم الخاصة لأمهات انهمكن في شؤون البيت فتجاهلن بين الحين والحين بكاء هذا أو ذاك.

حنين خفي، وسر لم أفهمه لوّح لي بأعلى بناية طينية للقصر، فرُحت أسلم روحي لتلك النسمة السحرية الممزوجة بهواء عَبَّقَ جدراناً طينية ونخيل ظل يهتز معانقا تلك الرياح في شموخ، مثله رحت بخشوع أتتبع أصوات أطفال ترتل القرآن، كانت تقودها الرياح إلى سمعي فأدثرني من قشعريرة تلف كياني وأسارع الخطى دون أن ينطق لساني.

أصوات أولئك الصبيان لا تزال تجلجل قادمة من أعلى مبنى بالقصر القديم تهفو لها نفسي وأحاول العثور على زقاق يفضي مباشرة إليها فأعجز. كل الأزقة متشابهة ومتداخلة هنا وأنا بعد لم أحدد وجهتي إلا بتلك الأصوات التي ملأتني بعالم صوفي رهيب فرحت أقتفي، وفضولي بخجل خطاي يحتفي.

صوت خشخشة كيس ينكمش داخل جيب أحدهم، ووقع أقدام ينبئ بقدوم وقت ما... التفتت ... كان على بعد خطوات مني، لم يرفع طرفه إلي ولم ينتبه لوجودي، هرول يضم برنسه الأبيض يتجاوزني في نفس الطريق الذي كنت أتبعه، علق بعض من بخوره بنسيم الزقاق، ذلك الزقاق الذي لم أرَ بابا من أبوابه مغلقا، كلها كانت مشرعة ، كلها كانت تغريني لولوج عالم البساطة ذاك.

وقبل أن يختفي ذلك الرجل ببرنسه الأبيض كنت لحقت به، لاشك هو من مرتادي الزاوية القرآنية، تبعته بخطى متعثرة مرتجفة لكن بروح عازمة ألا تعود قبل أن تكشف سر تلك الأصوات. كنت أقترب من تلك الزاوية القرآنية والأصوات هي الأخرى تقترب. بعد دقائق كانت أنفاسي متقطعة وقلبي بجنون ينبض، كنت مثل صاحب البرنس الأبيض أهرول خشية أن أفقد الأثر لعالم الروحانيات ذاك.

ها قد اتضحت الأصوات وصارت الآيات مسموعة، وها هي بوابة الزاوية الخضراء مشرعة أمام زقاق لا يعرف ترابه شيئا عن التعبيد. دخل ذلك الرجل وقد خلع حذاءه عند البوابة ومثله خلعت حذائي مقتربة لأطل عبر البوابة.. فكانت جنة الدنيا تطل من هناك، صبية تحلقوا حول إمام المدرسة القرآنية وهو كولي صالح ينثر نوره على أولئك الصبية آيات بينات من الذكر الحكيم، كل يعانق لوحته وهو يهتز ويصيح مرددا آياتها، وإمامهم يشير على هذا أو ذاك ليأتي أمامه يستظهر ما حفظ، في منظر تقشعر له الأبدان وتستكين له الروح. لم أنتبه لخطواتي التي لم تستشرني هذه المرة حتى صرت على مقربة من تلك الحلقة، لحظات قليلة ورفع آذان العصر يشق سكون تلك الظهيرة ويفك عقال الحمام ليغدو عند هاته الجارة أو تلك.

بحركة واحدة قام الصبية راكضين نحو حوش صغير ليتحلقوا حول لَمْحاوة[1] ، رائحة طين وصلصلة ألواح اختلطت بتمتمات الصبية بين جد ومزاح. لم ينتبهوا لتجسسي شغفتهم ألواحهم حبا وأبهجهم نجاحهم في الحفظ فمحوا الألواح بطين صلصال وما امّحت الآيات التي حفظوها بقلوبهم، ستظل منقوشة

[1] كلمة بالعامية وتعني المكان الذي يجتمع فيه الطلبة لمحو لوحاتهم بالصلصال والماء.

بالذاكرة وسيتم ترديدها عند كل سلكة يقومون ليلها أو بعد كل صدقة يختمون بها جلساتهم. مثلهم ابتهجت وسررت وقد خلتني بيني وبين نفسي أسررت " بورك فيكم وفي أخلاقكم" وما دريت أنني بها جهرت حتى تخيلت أن رابعهم الواقف على اليسار همّ بالالتفات نحوي لولا انهماك البقية بمحو لوحاتهم قد طمأنني أني لا أحضر جسدا إنما هي روحي من سافرت إلى هذا العالم.

عدت أدراجي بعدما رأيتهم يهمون بوضع ألواحهم مسندة على جدار كان يعانق آخر خيوط شمس شتائية باردة لتجف هناك على مهل. وانسحبت من اللوحة خفية بعد أن هلّت السماء فغسلت جدران ذلك القصر لتسكنني تلك الرائحة، تراب مبلل بالمطر.

كان ذلك عبقا من الماضي خلّدته الفنانة فتحية باهرة وأسكنته رائحة الذكريات الجميلة لتسكن تلك اللوحة. بينما جمعت أنا بقايا دواة وقلم من قصب ورحت أخبئهم بصندوقي الخشبي وأنا أثبت لوحة الصبية بغرفتي فيضاء المكان بهاء ورهبة.

وشوشات الأنامل. ـــــــ

"شموخ نخلة"

أن تحب شخصا التقيته أو تعرفت عليه فهذا أمر وارد، ولكن أن تحب نخلة داخل لوحة فهو لعمري الجنون بعينه، وهذا ما حدث معي اليوم ...خرجت من مقر عملي متعبة أحمل كتبي ومحفظتي باتجاه المكتبة. جلست عند أول طاولة كانت على اليمين ورحت أبعثر أوراقي علّني أستطيع كتابة شيء يليق بقلبي وذاكرتي. يقولون نحن لا نملك شيئا أمام القدر ولا مفر لنا من تصاريفه، وحده القدر يظل أكبر منا وهو يغير كيف شاء أيامنا ولياليـنا، فنسعد حتى نخالنا خلقنا سعداء، ونحزن فنهرب من كل ما حولنا لننكمش داخل قوقعات الصمت .لم يغضبني ما حدث اليوم ولا القرار الذي زرتني برفقته كأنه سهام منية، فقد أدركت واقتنعت أخيرا أن كل طرقي ما عادت تؤدي إليك، وأن معاندة الأقدار شبيه بمعاندة الموت ذاته، لذلك جمعت كل رسائلي وألبوم صوري وبهدوء غادرت عالمك.

ها أنا أجلس وحدي أروض هذا القلب العصي عن التوبة منك، أخرج خلسة صورك المندسة بقلبي. مثل نخلة يمد حبك جذوره داخل أعماقي فأعجز عن اقتلاعه. كنت أخرجت دفتر يومياتي لأدون كما العادة خيباتي علّني بالعودة إليها أتعظ وأتوب لكن في

كل مرة أعود بخيبة أكبر وجرح أعمق... ورغم ذلك مازلت بكل صدق... عن المحبة... أكتب..

قبل أن أخط شيئا كانت اللوحة المعلقة على الجدار قد شدت انتباهي، تشبه في صمتها تفاصيل وجعي، نخلة شامخة غطت جل التفاصيل الأخرى متربعة على المساحة الأكبر من اللوحة، كنت بين الحين والحين ألمح لها توأما، ثم أضحك لأن حزن عيني جعلني أرى للأشياء أشباه، فأمسح دمعي وأعود لدفتري، ثم يعاودني الفضول مرة أخرى للوحة، الغريب في تلك النخلة أنها كانت تقف أمام بعضها الميت الذي ارتمى في صمت على الرصيف ... رصيف؟ غريب... كيف استطاعت النخلة أن تعيش بمكان يضيق على مقاسها؟ ما كان للرصيف أن يترك جذورها تمتد حيث تشاء، لهذا كان حريا بها إما أن تقتل قلبها وإما أن تموت، فلا المكان يتسع لها ولا البيئة تشبهها، ورغم ذلك... أقوى مني ... ومن قلبي بدت .

مسحت دمعي الذي تناثر على دفتر يومياتي وأنا أغلق كتاب "مموزين" لأسارع الخطى نحو محطة الحافلات، ألقيت نظرة أخرى على تلك اللوحة التي تقابلني فشعرت وكأنها تحاول أن تقول لي شيئا، تذكرت نخيل السياب: "عيناك غابتا نخيل ساعة السحر..."، ويهطل مرة أخرى من عيني المطر... مطر.. مطر ...انجلى

الضباب الذي كبل عيني فأبصرت من جديد نخلة اللوحة في مشهد حزين كأمسيتي تلك. كانت النخلة رغم موت بعضها لا تزال تبتسم، وتحمل بقلب عراجينها الثمار، وهم من حولها أحاطوها بالطين والحجر، هل يعجز الإنسان أن يكون مثلها؟ ما بالنا نضعف عند أول مشكلة ونغضب في سرنا من القدر.

كانت العراجين فخورة بانتمائها للنخلة، والنخلة في فخر وصمت صامدة، اقتربت من اللوحة أكثر فرأيت خلف النخلة الشامخة نخلة أخرى لم أنتبه في البدء لها، يبدو أنني لم أنتبه لوجودها أو لأن دمعي حال دون وضوح اللوحة فحسبتني توهمتها...بلى...لقد كانت هناك نخلة التصق جريدها بالنخلة الشامخة حتى صارت كأنها منها أو كأنها هي..

حينها أدركت أن سر ثبات النخلة الشامخة هو تلك النخلة الواقفة خلفها، بكل حب تسندها فلا تترك لها مجالا للتراجع أو السقوط، مثلها كنت أحتاج أن أسند أوجاعي على نخلة فتثمر أفراحا وأملا.

علمتني تلك النخلة أن الحياة الحقيقية تكمن في قلوب صادقة صدوقة تحبنا بإخلاص، تأخذ بيدنا لحظة ضعفنا

لتوصلنا إلى بر الأمان.

كنت قد خرجت بعدما تأملت مليا قصة اللوحة وكيف وقفت النخلة غير آبهة بما قتل منها، وتذكرت أن تلك المنازل التي كانت خلف النخلة هي الأخرى ظلت صامدة رغم من مروا بجوارها أو سكنوها، شهدت ليالي أفراحهم وأنين متوجعيهم وآلامهم ورغم كل الظروف ظلت وفية لأسرارهم... تماما كتلك النخلة الشامخة. أخذت مقعدي بالحافلة أطل عبر نافذتها الشبه مفتوحة وسؤال في داخلي مُلح: "أعجزنا أن نكون صادقين كنخلة؟"!

وشوشات الأنامل. ـــــــ

"هي المرأة السمراء...

واهبة الحياة في الصحراء..."

التقيت صديقتي الفنانة التشكيلية "فتحية باهرة" منشغلة بترتيب لوحاتها وهي تعلقها على جدار سيعرض بعد ساعات أعمالها التي ولدت من رحم الحياة، كانت اللوحات معروضة بشكل أنيق حرصت صاحبتها على أن تختار لكل لوحة زاويتها المناسبة. لم أسألها كثيرا هذه المرة ولم أتدخل لمساعدتها، اكتفيت بابتسامة وأنا أراها تتنقل بينها في فرح كطفل ظل يعانق رسوماته، كان فنجان محبتنا حاضرا كعادته، وطاولة ننفض عليها ما تبقى من تعبٍ يومي عالقا بذاكرتَيْنا، لم أنتبه إلا وفتحية تحمل بدلال لوحة متوسطة الحجم احتارت أين تضعها... واضح حبها للوحة فهي لم تحملها مباشرة لتضعها كباقي اللوحات، بل كانت تعانقها، تمتص منها رائحة طفولة وكبرياء، وتسكنها روحها بكل سخاء، لاحظت انتباهي فتوجهت إليّ بسؤالها:

-" ساعديني أين أضع هاته اللوحة، أريدها أن تحتل مكانا بارزا بين اللوحات؟.

ابتسمتُ، كنت أرى اللوحة لأول مرة عن قرب، توجهت

نحوها بقلب مرتبك ويدين تعانقان محيطها، كانت اللوحة عبارة عن صورة لامرأة بملامح صحراوية، نظرتها تقول كل شيء دون أن تنطق بشيء، تلك التي تهدي من عمرها لتزهر البسمة على وجوه الآخرين، تلك التي قال عنها السائح الحبيب في روايته " تلك المحبة" بأنها المرأة: (واهبة الحياة في الصحراء وباعثة الغيرة في قلوب النساء)، من سمرتها يمتص الرمل ألوانه حين تغريه شمس المساء، ومن نظرتها المكابرة إصرار النخيل على الحياة، لوحة مزجت بين الصبر والحزن الذي لمع بعيني المرأة التي أشاحت بنظرها نحو اليمين في حزن عميق دفين.

وقد رسمت الفنانة فتحية خطاً فاصلاً بمنتصف وجهها جعله ينشق إلى نصفين، خط لم يكن أبدا عشوائيا وإنما مدروس بدقة، وكأنها أرادت أن تقول على لسان امرأة الصحراء: " لي بالحياة الصحراوية القاسية وجهان؛ وجه متخم بالعواطف والمشاعر التي تختلجني لحظات وحدتي، أبتسم دون أن يكون لشفاهي صدىً، أرتب ملامحي كي أظل شامخة في عيون الحاضرين فلا يحس أحد غيري انكساري ووجعي، أهدأ في المواقف التي تستدعي ضجة و صياحا لا يليقان بامرأة صحراوية مثلي، أنا تلك

التي ناداها الشاعر متغنيا بدلالها وكبريائها حين لم ترد عليه: يا بنية العرجون، وتغنى آخر: بنت الصحراء يا محلاها.

ووجه آخر عبوس حزين شبيه في قسوته بتلك الطبيعة الصحراوية التي تبدو قاسية للكل، إلا أنا ...أرى في قسوتها علينا كل الحب، من رحمها ينبع الصبر والأمان، وبين هذا وذاك ظلت ابتسامتي رهينة الصمت المطبق على شفتي".

لم تكن نظرتها نظرة استسلام وخنوع كما يبدو لمن يراها أول مرة، بل كانت نظرة استخفاف وسخرية، وكأنها أرادت أن تقول للجميع:" لا يهمني كيف ترونني، فأنا – رغم كل شيء – بخير".

عدت مرة أخرى أحاول أن أهرّب نظري كعادتي كلما كان الموقف محرجا، كانت فتحية لا تزال تبحث بعينيها عن زاوية مناسبة ثم تعود لي منتظرة مني اقتراحا حول المكان الذي ينبغي لنا وضع اللوحة فيه. خشيت أن تلحظ ارتباكي فتلك المرأة اللامبالية بنظراتها والفخورة بانتمائها الصحراوي وببشرتها السمراء جعلتني أقف بقلب مرتبك على حافة الأسئلة، وفي محاولة مني لعقد صلح بين نظراتنا تقدمتُ خطوات نحو اليمين علّ نظرها يقع بنظري وأنا أقف هذه المرة أكثر جرأة وفضولا، فقابلتني نظراتها المغرية ببوح ما، ورحت لأول مرة أنظر إليها من الزاوية الأقرب للروح، رأيت

هذه المرة واحات نخيل يتهادى جريدها مع هبوب رياح الجنوب، وعطش يتوق لشربة ماء بئر باردة، والكثير الكثير من الإغراء. أتبعه هدوء ما انفك يتسرب داخلي وكأن السياب كان يعنيها في أنشودته:

" عيناك غابتا نخيل ساعة السحر

أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر"

هنا أفرجت السمراء عن ابتسامة كدت أراها تتدحرج على شفتيها رغم عبوسهما.

كانت فتحية قد وجدت أخيرا مكانا مناسبا على الجدار المخصص للعرض، والمعرض قد بدأ يستقبل الزوار بعد الإعلان عن افتتاح موسم المعرض الخاص بالفنون التشكيلية، لم أنتبه للحضور الذي راح يداعب بعيونه اللوحات، فقد ملأت تلك اللوحة كل الفراغات بداخلي، وغمرتني عزة وشموخا وأنا أراني بعينيها ابنة الصحراء التي لا تترك بعينيها أثرا للبكاء، بل تصبر وتبتسم.. لكن بكبرياء خالطه حياء.

2021
2021
BAHRA

"عالم الرجل الأزرق"

لأول مرة أنزل بهذه الأرض الطيبة. طوال الطريق غارقة في تلك الجبال التي تسحرك بأشكالها الغريبة والسماء الصافية التي تشبه زرقتها سطح البحر في صبيحة ربيعية، وتلك الطريق الممتدة بلا نهاية تسافر بك إلى عالم من السكينة والهدوء.

نزلت من الحافلة أجر حقيبة ملابسي بحثا عن فندق، وفي قلبي مشاعر فرح غامر لاكتشاف هذا العالم الذي كثيرا ما حدثتني عنه صديقتي وبذاكرتي أحفظ لوحة الرجل الأزرق التي رسمتها ذات شغف .كنت أعبر تلك الشوارع الواسعة وكلمات صديقتي فتحية عن رحلتها إلى هنا تتردد كشريط أسمعه دون ملل.

مر بجانبي رجل يهرول تاركا عباءته الزرقاء للريح تملؤها تارة ثم تخفي ملامحها تارة أخرى. حييته طمعا في أن أسأل عن مكان أقرب فندق من هنا، كان لثامه كلون عباءته أزرقا سماويا يبعث على الطمأنينة، توقف متفرسا ملامحي ثم أشار بيده نحو آخر الشارع أين علقت لافتة بنية تخبر عن طبيعة المكان "فندق".

شكرته وأنا أحاول أن أستفسر أكثر ، أو لعلني لم أكن أريد غير التمعن في طريقة لباسه ولثامه الذي يخفي وجهه، وحدها

عيناه بسوادها الصافي قد لمعت في حياء حتى خلت صورة وجهي انعكست ببؤبئها. ثم ضاقت جفنتاه عاكسة ابتسامة أخفاها اللثام وقال:

-"هل من خطب؟".

ارتبكت. كنت أود أن أقول إنني حضرت لأجل تظاهرة ثقافية لكنني قلت:

-"لا، شكرا".

مثله كنت أضع كمامتي فلم ير غير حديث عيني، وإشارات يدي.

واصل سيره بالاتجاه المعاكس لاتجاهي، لكن هذه المرة بخطى ثقيلة مترددة، كأنه هو الآن من يود لو سألني أكثر، أو أطال الحديث الذي اختصرناه بدافع الارتباك...وبدافع الحياء أيضا . واصلت أنا الأخرى طريقي نحو الفندق أجر حقيبتي التي زادتني إعياء، لعله لاحظ ذلك أيضا ولهذا سأل إن كان هناك خطب ما.

استدرت بعد أن تذكرت شيئا، قلت وأنا ألوح بيدي اليمنى، وباليسرى أشد حقيبتي:

-"نلتقي بالتظاهرة.. ستجدني هناك". ثم استدركت حين رأيت دهشته:

- " اسمي حورية...حورية...تذكر".

قلتها وأنا أزيح الكمامة كي يتعرف على تفاصيل وجهي. وقف مذهولا ثم عاد يمحو خطواته مسرعا بعد أن فاجأته، ليقف هذه المرة على مسافة أقرب صامتا بنفس العيون التي تختزل ليال صيفية أضاءها قمر أوت بأشعته الخافتة .قال وقد أسدل لثامه ليتمثل أمامي شابا وسيما دقيق الأنف، تنفرج شفتاه عن ابتسامة تقرأ تفاصيلها بكل بساطة. قال مادا يده نحو حقيبتي:

- " كنت أبحث عنك أستاذة حورية، معك عبد القادر مرافقك ودليلك أثناء فترة إقامتك".

ثم أضاف:

-" أهلا ومرحبا بك في منطقة التوراق، أتمنى لك إقامة طيبة بيننا ".

أحسست طمأنينة سرت بجسدي وعادت لي حروفي التي كانت قبل قليل مرتبكة، بل عاد لي هدوء الروح الذي كدنا نفقده طيلة

هذه السنة 2020، سنة كاملة قضيناها مختبئين كالفئران في جحورنا خوفا من هذا الوباء الذي هجم بلا رحمة ليفتك ويقتل ويملأ عالمنا رعبا ويتما... ها هو الرجل الأزرق يختصر خوفي بقوله سيكون دليلي ومرافقي، وبأني الآن في أرض تفتح ذراعيها بكل حب لزائريها.

حمل حقيبتي وغير اتجاهي نحو الطريق التي كان يهرول باتجاهها فعلمت أن الفندق الذي دلّني عليه لم يكن المكلف باستضافتنا. تبعت خطواته التي كانت تضطرني لمضاعفة خطواتي، حين انتبه تريث قليلا وقد ابتسم. لعله أدرك أن قدماي لم تستوعب بعد السير وفق نظام خطواته .

رحت أتبعه وأنا أمد بصري إلى التجمع الذي كان أمامنا، لم أعرف بعد إلى أين كان يتجه بي عبد القادر مرافقي، لكني مشيت بجواره ولم أسأله احتراما لرهبة صمته وحضوره الذي اجتاحني. فاكتفيت بالهرولة كلما أحسسته تجاوزني بخطوتين أو أكثر لتتناسق خطواتنا مرة أخرى في إيقاع جميل .صارت الأصوات ترتفع باقترابنا...اتضح الآن أنه احتفال حين لمحت رجالا بزي تقليدي يرقصون في حلقة دائرية حاملين أذرعا وعصيا يتناوبون على الحلقة. بينما التفت إليّ مرافقي مشيرا إليهم:

-" إنها رقصة الرجل الأزرق احتفالا بقدوم عام جديد نتمناه نهاية للوباء والأحزان".

لم أعلق، فقد علق نظري بتلك الرقصات التي كانت موزعة بانتظام على الفرقة. لم أنتبه لغروب الشمس حتى هزني من خلفي: "هنا يكمن سر الأهقار...روعة غروبه لا تشبه في سحرها أي غروب ."استدرت، عانقني سحر رهيب لقرص كبير أصفر يغرق بين جبلين ممتدين كأصابع متشابكة، وحولها رقصت الشمس لتنثر خيوط صوف بلون وردي يميل للاحمرار. منظر ذكرني بأيام الربيع التي كنت أقضيها بالبادية .

كان الحفل في قمة زهوه، الكل شارك الرقص واختلطت الحلقة بين المتفرجين والراقصين، كان مرافقي سعيدا لسعادتي، يشرح لي بين الحين والحين بعض العادات والطقوس التي كنا نراها، ارتديت مثله عباءة بنفسجية كان قد أحضرها لي كتذكار وساعدني في لف العمامة لنسير بعدها بين تلك الجموع التي اتحد اتجاهها فصارت بطريق طويلة شاسعة، وقفت كصنم في مكاني مبهورة بتلك الطقوس وألوان العباءات الفضفاضة التي لم تخرج عن اللون الأزرق في تدرجات حرارته.

انتبه مرافقي لشرودي فلم يهزني هذه المرة بل أمسك بيدي وراح يسحبني برفق لنلحق بذلك الركب الأزرق المبتهج. سألته بارتباك: " إلى أين نحن ذاهبون؟" .ابتسم بثقة هذه المرة وقال:

-"نحن الآن نعبر البوابة الكبيرة ... إننا نستقبل السنة الجديدة وندعو الله أن تكون سنة خير وهناء للجميع".

وما إن أتم كلامه حتى كنا قد صرنا تحت بوابة كبيرة إطارها بني سميك تزينه كتابات دقيقة لم أستطع تميزها أو قراءتها، كان المكان أكثر هدوء بعد عبورنا البوابة وشعور بالطمأنينة يشرح الصدر، وصلنا لبوابة أخرى تاركين بوابات كثيرة خلفنا، فتحها بيد وبالأخرى أشار لي وهو يحني رأسه احتراما ونبلا:

-" مرحبا بك أستاذة حورية ،أنت الآن في الألفين وواحد وعشرين".

جلست بقربي صديقتي فتحية بعد أن أغلقت باب السيارة وهي تقطع شرودي باللوحة التي نسافر الآن من أجلها، قالت مبتسمة:

-" هل قرأت شيئا في هذه اللوحة؟".

أجبت دون أن أرفع عنها نظري:

-" أنا لم أقرأها، أنا كنت هناك فعلا، لن تصدقي، لقد تجولت داخل لوحتك والتقيت عبد القادر".

ضحكت وهي تضع أمامي اللمجة بينما قال السائق لفتحية ساخرا:

-" واضح أن الجوع قد نال من صديقتك".

لم أعلق اكتفيت بدهشتي على مسمع منها

-" جننت! أكيد جننت...لقد كنت هناك حقا".

قالت لي بثقة وجد هذه المرة:

- " أنت مبدعة عزيزتي ويشدك الإبداع لدرجة التماهي فيه... بالنهاية ما الإبداع إلا تلك اللحظة المجنونة التي نجسدها بكل حب...أنا بالريشة وأنت بالقلم".

قالت ذلك مشرعة باب الأسئلة على مصراعيه، ورحنا نتناول لمجتنا في صمت عابرين طريق الصحراء باتجاه أرض الأهقار

الساحرة، وبيننا تربعت على كرسي القلب لوحة الرجل الأزرق كمرافق لنا ودليل.

2020
BAHRA

"زورق النجاة... رحلة نحو الأمل والحياة"

استفقت هذا الصباح وبحلقي جفاف رهيب. جسدي كله يرتجف ورأسي من الوجع يكاد يطير. بصعوبة نهضت من فراشي أحاول ألا أوقظ ابنتي التي تنام على ظهرها وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامة ملائكية.

اتجهت نحو المطبخ أجرّ الخطى، لأصل في الأخير إلى الطاولة التي ضمت كوب الماء ذاك. ابتلعته دون توقف ولم يخف الجفاف. شعرت بالدوار يزداد وبفمي يكاد يلفظ لساني كي يلتقط آخر قطرة ماء بالقارورة. صحبه ضيق في التنفس كأنما جثا على رئتي جلمود امرئ القيس .

لم أفكر طويلا اتصلت بزوجي الذي أدرك من تقطع أنفاسي أن بي علة، وفي قرارة نفسي كذبت كون مرضي قد يكون ذلك الوباء اللعين، كلها الأعراض تشي بذلك. عدت لفراشي أجرني جرا. ارتميت هذه المرة بعيدا عن ابنتي خوفا من عدوى محتملة ورحت في نوبة سعال حاولت إخفاءها بالوسادة حينا وبالغطاء أخرى خوفا من استيقاظ ملاك التي كانت تنام بجانبي.

وصل الإسعاف يغيث أنفاسي المتقطعة بالأوكسجين، بينما زوجي يرمقني بنظرات شفقة أكدت لي إصابتي بالوباء. مرضت إذن وصرت محل رعب بالنسبة للجميع. خطر محدق بصحتهم وكابوس يقلق هدوء لياليهم.. أيام غيم مضت خطت فيها الوحدة والخوف أخاديد بروحي، علمتني التعود على أنابيب المصل والأكسجين، علمتني سماع أنين المرضى ليلا كلما عاودتهم نوبات اختناق وعودت قلبي الصبر على فلذة كبدي ملاك.

علمت من والدها بلحظات زيارته القليلة وهو ملفوف داخل بياض البلاستيك المرعب أنها لا تكف عن البكاء والسؤال، تسارعت نبضات قلبي، عاودتني نوبة سعال أقوى حتى خِلتُني سأتقيأ أحشائي ولم يسعفني الحظ هذه المرة في التقاط الأكسجين. سمعت زوجي يصرخ مستنجدا بالأطباء ذهابا وإيابا في الرواق، ثم يعود ممسكا بيدي التي كنت أبعدها بكل ما أوتيت من قوة رغم الوهن. شيئا فشيئا...غاب كله الأكسجين وأحسستني أتخبط كغريق فقدت رأتاه هواء الحياة...لتلتقطني يد رحيمة فأستفيق بعالم آخر أكثر هدوء. أخذت أجول ببصري مستكشفة أين أنا أيقظتني ملاك وهي تهز كتفي..

التفت حولي... كل شيء في مكانه... تحسست حلقي كان طبيعيا... وحرارتي لم تكن مرتفعة. عانقت ملاك وشفتاي ترددان "كان كابوسا مرعبا...حمدا لله أننا بخير". تأكدت من أنني لم أغادر مكاني الذي اختارته لي فتحية داخل اللوحة. وعلى يميني ملاكي نتابع ما يحدث.

كنا نبحر معا نحن الثلاثة داخل كمامة أمان صنعتها لنا صاحبة اللوحة. تحلق بنا عاليا. وكلما صادفت فيروسا يسبح بالجوار أبعدتنا عنه. بقينا نحن الثلاثة نرقب من أعلى تلك الجثث التي تناثرت هنا وهناك والناس في فزع يهرولون نحو منازلهم. أما أنا وابنتي ووالدها.... فكنا نعبر عالم الصفاء الروحي... بعيدا عن وباء أكل الأخضر واليابس. تلقفتنا فيما بعد حمامة سلام بيضاء حملت القارب وطارت بنا بعيدا جدا نحو زهرة تفتحت أوراقها بالأمل وبالغد المشرق الجميل.

كانت زهرة الحياة أمامنا تبسط أوراقها لنعانقها. ألقيت نظرة سريعة بالأسفل...فرأيت سنة 2020 تقبع هناك حائرة وقد تجاوزناها بمسافة حماية وحذر. وحده حرص صاحبتنا الفنانة التشكيلية باهرة فتحية ووعيها أنجانا من شر زار المدينة زحفا على

جثت العديد ممن استخفوا بالوباء فعرضوا حياتهم للخطر وقتلوا أحب الناس لقلوبهم وأقربهم .

لم يمض النهار حتى كنا قد انتقلنا لمعرض كبير يعج بالزائرين.. كانوا كلما مروا بجوارنا تأملونا بإعجاب وانبهار. ثم يتفقدون كماماتهم قبل أن يهموا بالمغادرة ...

استدارت لنا فتحية مبتسمة سعيدة بنا. لم نر ابتسامتها التي أخفتها الكمامة، لكن عينيها رمقتنا بود وهي تومئ لنا بالنجاح. مثلها كدنا نطير من الزورق فرحا لمعانقتها لولا أننا خشينا من عيون الحاضرين فاكتفينا بالمتابعة بينما توجهت فتحية بمحبة نحو صديقتها التي رأتها تقف بحثا عنها عند بوابة ذلك المعرض الكبير. تعانقتا وضاع طيفهما بين أطياف الحاضرين.

ص
ع
ق
و
ر
BAHRA

"وشوشات الأنامل ...حديث الروح..."

حينما يغدو الرسم بالريشة يحاكي ما بداخل الفنان الذي يتصالح بشكل عجيب مع لوحاته، يعتني بها كأنها أول وآخر مولود بالكون، ينتقي لها أماكن خاصة تليق بها، لا لشيء سوى أنه أفرغ فيها بعضا من روحه حين رسمها، فغدت جزءا مهمّا من حياته.

الأمر نفسه يحدث مع الكاتب حين يفرغ من كتابة نصه الإبداعي فيعود إليه مرات ومرات، يدقق، يتفحص وفي الأخير يهديه للقارئ بحب .وأنا أقف ذات صبيحة بمكتب الفنانة التشكيلية "فتحية باهرة" راق لي كثيرا منظر اللوحات الثلاث المعلقة على الجدار كأنها تراتيل صلاة محبة، شيء ما دفعني للاقتراب منها ومحاولة قراءتها، كانت اللوحة الأولى لعصفور أزرق يجلس بحزن داخل قفص لم يكتمل رسمه، كأنه يحاول الخلاص والبحث عن الحرية.

لم يكن القفص مغلقا تماما، كانت بعض خطوطه غير مكتملة مما يترك للعصفور فرصة التحرر والانطلاق ، غير أن وقوف العصفور لا يبدو وكأنه يفكر في الانطلاق فقد بدا العالم الخارجي بالنسبة إليه مربكا ومخيفا، ترجمته نظراته التي توقفت

تماما عند الزهرة الحمراء الساقطة من باقة الورود بمحاذاتها، كأنها كانت تقول للعصفور:

- " لا تغادر مكانك أيها العصفور وإلا كانت نهايتك كنهايتي حين حاولت مغادرة مكاني".

فيظل العصفور على هيئة قلقة لا هو يهمّ بالطيران والمغادرة ولا هو أحب البقاء منكسرا تحت رحمة القفص.

وقد أبدعت ريشة الفنانة فتحية في جعله يقف بتلك الطريقة المترددة بين الإقبال على الطيران والإدبار عنه . ثم إن الأزهار المتواجدة بالباقة كانت ثنائية اللون، زهرتان صفراوان وزهرتان ورديتان وزهرتان زرقاوان وإن كانت الزهرة الزرقاء الثانية لم تكتسي بعد باللون الأزرق، كانت بمرحلة انتقال من البنفسجي إلى الأزرق، ثم الزهرة الحمراء التي كانت تمد بوريقاتها نحو الأعلى بحثا عن هواء وضوء لتزهر، فهي لم تكن قد أزهرت بعد، بينما خارج الباقة سقطت الزهرة الحمراء الثانية على الأرض بعدما تفتحت. وكأن تلك الزهرة قد عوقبت على انفتاحها مبكرا ومحاولتها رؤية العالم بوضوح وذلك بنفيها من باقة الزهور بأكملها.

شبيه عالم الورد بعالمنا، كأن باللوحة تأملا عميقا للحظات

التردد التي تنتابنا ونحن أمام أمر مصيري بحياتنا، فلا ندري أنُقبل على الأمر أم نتراجع. هي من اللحظات المهمة التي تحتاج منا تأملا وتدبرا، صوّرتها أنامل "فتحية" من خلال مؤشرات عدة مثل: (القفص شبه المغلق، الوقوف المربك للعصفور، نظرة العصفور إلى الأسفل باتجاه الوردة المرمية على الأرض، الوردة الحمراء التي تمردت على الباقة وظلت ملقاة..)، كلها مؤشرات عكست لحظة القلق التي نعيشها ونحن نحاول البحث بشغف عن حرياتنا داخل عوالم الإبداع.

استعملت "فتحية" الرمز في اللوحة فاختارت العصفور للدلالة على النفس المبدعة وهي تصارع في بداية مشوارها محاولة الخلاص من القيود التي تكبلها، واختارت القفص كدلالة على نظرة المجتمع الضيقة للفن والإبداع تاركة فتحة بالقفص كانطلاقة نحو توسع هذا المفهوم، وتلك الفتحة الموجودة بالقفص عمدت إليها الفنانة كمؤشر دال على أن النظرة الضيقة للفن ستتسع وسيصبح هناك مجال وفرصة للخروج من تلك المفاهيم الضيقة للفن. ثم اختارت اللون الأحمر للوردة التي خرجت من الباقة وسقطت ولم تختر لونا آخر لأن الأحمر في عالم الألوان يرمز للمحبة ولأننا نحب إبداعاتنا نحاول أن نحلق بها في

سماء النجاح فإن أخفقنا كان المصير هو السقوط، غير أن الفنانة جعلت مفهوم السقوط لا يعني الفشل وإنما فتحت له آفاقا أكثر تفاؤلا حين أوجدت وردة حمراء أخرى داخل الباقة تتطلع لتزهر، كأنها تود القول إن السقوط لا يعني دائما النهاية، قد يكون نهاية لأمر محزن وبداية لأمر أجمل بكثير. فليس كل سقوط إخفاق وليس كل اخفاق نهاية .

قرأتُ ذلك كله في تلك اللوحة تاركة اللوحتين المتبقيتين في الانتظار ، بينما كانت "فتحية" قد غادرت مكتبها لإحضار بعض الملفات، حين عادت بإشراقتها المعهودة كنت قد استأذنتها لأخذ صورة تذكارية للوحات الثلاث وفي قلبي هاجس قراءة اللوحة الثالثة التي زينت جدار مكتبها .

بعد انصرافي كانت اللوحة الثالثة تنقر خفيفا على شاشة هاتفي لتقول لي: " كيف استطعتِ أن تقرئيني بكل هذا الحب وأنا أقف معلقة هناك منذ شهور دون أن تلثمني أنامل أخرى غير أنامل فتحية؟ ."كنت قد نظرتُ إلى صورة اللوحة بهاتفي وأنا أبتسم، مثلها كنت ذات يوم عصفورا بحاجة إلى رعاية واحتواء...كي أطير...

وشوشات الأنامل. ـــــــ

"الطيور على أشكالها تقع"

يقولون الطيور على أشكالها تقع، ونسوا أن يقولوا: الطيور على أشكالها تحزن وتتوجع. تحن الطيور لبعضها، فتسافر بحثا عن الدفء والمواساة...ويسافر الإنسان بحثا عن قلب يحضنه فلا يجد إلا الخواء يحدق به من كل جانب، أليس الإنسان أولى بالمواساة؟. !هكذا دخل هذا الطائر المتعب ليجلس بحافة اللوحة، لم تكن زيارته للوحة محض صدفة ولكنه رأى صديقه مسجونا فأبى إلا أن يخفف عنه، فما لقلبك أيها الانسان لا يحن ولا يبالي؟.

بعض الصدف تجعلنا نعيد النظر.. بعضها الآخر يقلب حياتنا رأسا على عقب... لكن عند هذا الطائر فإن الصدفة بالنسبة إليه وليدة قلق على مصير قرينه... كان العصفور وقد تسلل الى داخل المكتب توجه مباشرة نحو اللوحة كأنه أتى من أجلها وحدها، لا يهمه ما في المكتب من إغراءات ، لا يهمه أن يحصل على توقيع لصفقة ما أو المصادقة على برنامج من البرامج التي كانت صاحبة المكتب تعدها ، كان همه الوحيد تلك اللوحة، وذاك الطائر السجين داخلها، حتى أنه لم يجلس على حافتها موليا ظهره بل كان مقابلا له وكأنه يستفسره عن طول مكوثه بالسجن، متسائلا في

سره إن كان هناك أمل بخروجه، قبّله بنظره مليا غير آبه بعدسة الهاتف التي تراقبه، فالنكبة بالنسبة إليه أهم من أي شيء آخر.

عجيب.. وحدهم البشر لا يأبهون.. سواء تألمت أو فرحت، مرضت أو شفيت. وحدك ستعيش اللحظة ووحدك ستتعلم كيف تداوي جراحك بنفسك دون شفقة من أحد أو منّة .عالم الطيور مختلف جدا...بريء حد السذاجة، نقي حد النور، وصادق ... لم يحدث أن لفت انتباهي طائر حقيقي يبحث عن طائر رسم بأنامل من محبة على لوحة وعلقت اللوحة بالجدار.. أيكون أحس محبة الرسامة تتجلى بملامح الطائر حتى توهم أنه حقيقي؟ صدقا... لا مشاعر تعلوا على مشاعر المحبة. بالنهاية، كل ما رُسم بصدق ومحبة سيؤثر حتما فيما حوله.

2018 BAHRA

"زهرة النـار"

بقلق سألت:

- "أين أنا؟".

لم يجبني أحد، كان الظلام الدامس يغطي المساحات من أمامي فأكتفي بحاسة اللمس لأتقدم بحذر خشية الاصطدام بجسم ما.. كنت أبصر بين الحين والآخر أضواء خافتة بيضاء أو صفراء منحتني بصيصا من أمل.

أردت أن أحتفل اليوم ببلوغي ونضجي فقد اكتمل نموي أخيرا وصرت زهرة فاتنة أبسط وريقاتي في خيلاء كلما هب نسيم يداعب خجلي...أخيرا صرت زهرة حمراء كتلك التي طالما راقبتُها مختالة بالحديقة المجاورة، تعانقها عيون المعجبين حين تمر ناحيتها، وكم تمنيت لو عانقتني يوما تلك العيون .

أقبل الربيع ينثر عطره الأخاذ على الزهور، معلنا عن بداية أمل جديد. هذه السنة سأكون من بين الحاضرات بحفل الربيع، فقد نضجت مثلهن وصار بإمكاني عرض جمالي على الكون بأسره،

سعادة لا تضاهيها سعادة، سألتقي أخيرا بالبشر، أهديهم عبقا من عطري، وأمتع عيونهم بجمالي الذي وهبني الله إياه لأجلهم.

نمنا تلك الليلة أنا وصديقاتي على بساط الفرح يداعبنا القمر بأشعته التي أهداها لنا في ثوب تهنئة زادتنا جمالا، وكل واحدة منا ترسم لنفسها حكاية جميلة بدايتها لقاء مدهش مع بني البشر . ها قد حلت تباشير الصباح وانجلت تلك الظلمة التي منعتنا ليلة أمس من رؤية بعضنا لولا أنوار القمر التي بددت حلكته. رفعت رأسي كباقي صديقاتي في دلال نرقب تدفق الجماهير التي كانت تستعد لاستقبال الربيع، يا له من منظر رائع ! لم أتخيله بهذا الجمال وهذه الحفاوة، الكل معجب بنا، ينظر إلينا بشوق وحب، كم ضيعت من مواسم لم أكن قد نضجت فيها لأحضر موكبا كهذا، لطالما حدثتني صديقاتي عنه.

اليوم بكل مشاعري أحتفل معهم وأنتشي لفرحهم بوجودي... إنني أنا الزهرة اليافعة أهديهم عطري وجمالي ولم أكن أعلم أنني أهديهم كل ما تبقى من عمري .كان البشر يتدافعون حول بوابة الحديقة فور فتح الباب الكبير، بشر في مختلف الألوان والأعمار، مثلنا يشدهم الفضول نحونا ويشدنا نحوهم الإعجاب ورغبة في إرضاء فضولهم. كنا من مختلف الألوان والأشكال والأحجام، وقد

وهبني الله لونا أحمر يصبغ وريقاتي وينسجم مع اخضرار غصني وأوراقي في جمال بديع.

أخيرا رأيتُ أحدهم يقبل بفضول نحوي، سعدتُ كون أحدهم التفت إلي بعد طول انتظار، داعب أوراقي في ود فازددت خجلا ورحت أتمايل بوريقاتي الناصعة الاحمرار، أداعب أنامله التي لم ألحظ في البدء خشونتها. عاد خطوات للوراء بعد أن ترك وريقاتي، راح يتأمل مرة أخرى جمالي وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة أسعدتني رؤيتها، اقترب أكثر هذه المرة وراح يمتص بأنفه عطر أنفاسي حتى كاد يغمى علي، عاودت ترتيب ملامحي وكلي غبطة لغبطته بي، ها أنا الآن زهرة محبوبة عند البشر، يستنشقون عبيري، ويغسلون عيونهم بمياه ألواني

.... هذا الشاب الوسيم لم يكن رغم تناسق هندامه متناسق الحركات، بل كانت حركاته مرتبكة، قلقة، يلتفت حينا لليمين وأخرى للشمال في حركة سريعة، أحسستُ أنه خائف من شيء ما أو يحاول الإفلات من رقابة ما، اقتربت يده مني مرة أخرى، هذه المرة كانت يده ترتجف، رفعها لأعلى ثم غرسها كمحراث بأرض رأسه يصفف تجعد شعره حين أبصر امرأة كانت تتجه نحوي مبتسمة، وتظاهر مثلها بالإعجاب بي بعدما أخفى كيسا أسود

داخل جيب سترته. ما لبثت المرأة أن استنشقت عبيري الذي اختلط بعطرها الهادئ، مداعبة بلطف أوراقي وهي بفرحة طفل تقول:

- " يا الله... ما أروعها!".

كنت رأيتها قبل قليل تطوف حول الأزهار كفراشة وتداعب أوراقها بكل حب، ثم تغادرها مبتسمة، وها هو هذا الشاب المربك قد سبقها في الانفراد بي.

وقبل أن تغادرنا بادلها بابتسامة شعرتها خبيثة منافقة هذه المرة، وما كذب حدسي. أدركت ذلك حين قرب إبهامه وسبابته مستعينا بالوسطى ليضغط بقسوة رقبتي، ويشد بالأخرى كيسا كان أحضره لإعدامي، حاولت أن أصرخ مستنجدة فلم يسمعني أحد، تملصت من بين أصابعه أحاول الخلاص فنجحت، ساعدني غصني الأخضر الذي كان يتشبث بي، ووريقاته التي حاولت حمايتي رغم صلابة أصابعه، عادت إليّ أنفاسي متقطعة وأنا أستنشق أكبر قدر من قذارة أنفاسهم لأمنحهم نقاء أنفاسي. ولم يشفع لي ذلك عندهم.

عاود إمساك عنقي بأصابعه الخمسة هذه المرة فلم يترك لي مجالا للاستغاثة أو التملص، رحت أستعين بقواي الروحية التي كانت تسكنني، محاولة إبعاد هذا الحقير ليفك رقبتي، كنت أحس طاقة باطنية رهيبة تتكتل داخلي فلم أتوان في إخراجها تلك اللحظة لشد ما كنت بحاجتها، وما علمت أنني كنت أحرقني إلا بعدما رأيت ذلك الشاب يفر هاربا مفزوعا وهو يراني أتحول كتلة من نار ترمي أوراقها التي كانت مسالمة قبل حين بألسنة من لهب أشعلت أصابعه الظالمة وحولت كل ما حولها لهيبا يستعر داخل قلبها فينفثه حمما يتسع مداها لكل خبيث سولت له نفسه اغتصاب زهرة بريئة مقبلة على الحياة.

الكل أفزعه لهيبي واحتراقي ففر إلا تلك المرأة ، أقبلت مهرولة نحوي باكية القلب، وهي تتوسلني لأهدأ وأستكين، سعدت –رغم ألمي- بمجيئها ومواساتها ، غير أن وقت انطفائي كان قد حان ولم أستطع إلا أن أقول لها:

- "إذا أردت ألا أنطفئ...فخلدي ذكراي على لوحة وبثيها جميع احتراقاتي..".

دمعت عين تلك المرأة بعدما أدركت قرب أجل الوردة، وقالت:

- " أنت لن تموتي...أنت زهرة الحياة التي تنيرها حتى وإن كنت لا تشبهين صديقاتك، ستظلين مبعث بهجتنا وفرحنا وأملنا حتى وإن كنت زهرة من نار".

زهرة لم تمت، زهرة صار لها عمر أبدي، كل سنة تحتفل مع صديقتها فتحية التي خلدتها بلوحة أودعتها كامل مشاعرها التي سكنتها لحظة الاحتراق، فتزهر حكايتها كلما أقبل فصل الربيع، لتصبح رغم الألم "زهرة أمل".

BAHRA
2021

"المادة 64"

لازلت يوما بعد آخر أتدحرج على طرف هدبك، ويزداد يقيني أن جفنك يكاد يلفظني، لم أعد أدري بعد في أي اتجاه سأهرب بحزني الذي جمعتُه قهرا، ولم تعد عيناك تسجنني . وحدي وقلبي نراوغ الذكريات، نوهم بعضنا أن بالعمر بقية اشتهاء لأمسيات صيف عانقت سمرنا وبعثرت أوراقه ريح غضب أتى مستعجلا، يلوح بقساوة على قلبينا وقد أرهقهما السهر.

اكتشفت بعد عمر من وهم الحب أنني لم أكن أفعل شيئا، ولم أنتقل خطوة واحدة نحو الأمل كما أوهمت نفسي، كنتُ كعرّاف يضرب بعصاه جزافا فيلفظ الرمل سطور وهم تعانقها الريح، ليمحو ما كان قيل قبل أن يزورنا خنجر الرحيل ويتعلق ابننا "بدر" بما تبقى من ابتسامتك التي ما عادت تشبه أبدا ابتسامتك.

لم تكن أبدا تشبهني أو تشعر ببعض حزني، كنتَ تشبه فقط لعبة طفولتي المصنوعة من قصب، تتفرج على دمعي ووحدتي، وتعجز يدك المبتورة أن تلتقط حزني لتدفنه بجوار أمسيات ذكرياتنا تلك، فسلام على قلب أخذ أكثر مما أعطى ومما

يستحق، فعاش النعيم رقصا على شظايا قلبي الذي كمدا صار يغرق، وأنفاسه بالخطايا تضيق.

أدرك كما الجميع، أنني عبثا أحاول أن أعيش قصة حب جديدة، وأن لقلبي حق استنشاق أوكسجين غير الذي كنت تمده إياه، ولكن تقف شامخة في وجه قلبي المادة 64، حتى لكأنني أنتعلها أنى ذهبت، غير أنني وبعد فشلي مرات ومرات أشحت بوجهي عنها خشية أن يَصدق حدسي فيتربع الرقمان بهو منزلي، ليدُكّا فرحتي الموؤودة بأقدام مادة لم تعنها يوما مشاعر أمومتي.

كان قدري الثاني خَجِلا، تعقد مشاعره ابتسامة طفولية مني، وعلى أنقاض خطيئتي الأولى بنى عرش حبنا الذي بدأتُه مرة أخرى بقلب كله لهفة وحب يكفي لآخر أيام العمر.. كان اسمه "عُمر".

شهران كفيلان بولادتي، تخلصت من هويتي القديمة "مطلقة"، رميت كل ما رآه الناس "عارا" بقمامة عقولهم، ومثلي "عمر".. إكراما لي...فعل.

وجلس الحزن على حافة الشرفة يرقب بهدوء سعادتنا، ألمحه بين الحين والحين يشيح بوجهه عني كأن لم يرني، أبصره من

تلك الجدران النّدية بمطر ليل شتوي طويل، أطَلّ كما لو أنه قريبا سيصل. نبّهتُ عُمَري وأنا أهز كتفه:

-" أنظر ! أتعرف من ذاك الغريب؟".

ودونما اهتمام أجاب:

-" لا أظنني أعرفه".

وواصل كنس شرفتنا من تلك البقايا التي خلّفها المطر... مطر... مطر...مطر..، كان يحدثني عن رحلته الباريسية وكيف أن النساء هناك دمى خلقن للغواية لا غير، حدثني عن عطور لن يصل عبيرها ها هنا، ولم أحدثه سوى عن القحط والجفاف اللذَين حلاّ بمدينتي، عن الجراد الذي أكل كل أخضر جميل غير آبه للخراب الذي خلّفه. وما دريت أن قدري الأول كان يرقب عن كثب سعادتي بانتظار أن يشهر بوجهي سلاحه الذي رخصه له قانون الأسرة ذات سنة جفاف.

استفقت على طرق متواصل بالباب، كان عمر قد تسلل من الغرفة باكرا كي لا يوقظنا، وابني بدر الذي زارني أمس لا يزال يغط

في نوم عميق ، قد تدلى جزء من غطائه على الأرض. رميت بعشوائية خماري المعلق خلف الباب ورحت أسأل:

-" من؟".

-" زهرة محمود؟".

فتحت وأنا أفرك عيني لأزيل بقايا نعاسي:

-" أجل، أنا هي".

رد وهو يناولني قلما ودفترا أمضي عليه استلامي تلك الورقة ليبدد دهشتي:

_" لديك جلسة بالمحكمة الثلاثاء المقبل".

لا أذكر كم من الوقت مضى على وقوفي عند الباب، ولا كيف فضضت الظرف ليظهر خط عريض أسود يتوسط تلك الورقة، شكلت حروفه المستفزة كلمة "استدعاء" لترتسم بذاكرتي تلك المادة اللعينة بحياتي، كوشم فشلت مرارا في مداراته وتغييبه.

هرعت لغرفة بدر أقبّله وأحضنه باكية كأنني لن أراه بعدها، ولساني لا يكف عن إرسال شتائم ولعنات لوالده الذي

انتظر كل هذه السنوات متربصا لفرحي، ها هو يشبع انتقامه وهو يرى انتصاره الأبدي بهزيمتي، أن يطالب بحضانة بدر بالنسبة له لا يعني أكثر من رؤية بؤسي وشقائي. ما همّه بدر ولا كيف يعيش، ما همته نفقته التي أهملها شهورا وسنوات، وحبا في ابني وفي إراحتي وإياه من الشد والجذب بالمحاكم تغاضيت عنها، كنت سأرتاح لو كان لوالدتي حق حضانته بعد زواجي، بالنهاية هي من تولت تربيته معي. لم يكن يفهم كل هذا، كان همه فقط هو أنا.. أن أندم على كل لحظة فكرت فيها بحياتي الحقيقية بعيدا عن عالمه الموبوء بالانتقام والأنانية.

غابت شمس ذلك اليوم كغيمة مثقلة رحلت ونست أن تمطر، رحل عمر...لأجل أن يبقى بدر.. فوجودهما معا بحياتي كان ضربا من المستحيل. وعُدتُ أنا المرأة.. الأنثى المعطوبة، أحمل عاهتي على كتفي بعدما بترت تلك المادة قلبي، وعدتُ مرة أخرى لبدائيتي الأولى وكما يحلو للجميع نعتي:

"مسكينة...مطلقة".

وشوشات الأنامل. ـــــــ

"فانوس رمضان 2021"

سماء حزينة وأرض يقتلها الظمأ لخطوات المصلين، لا شيء غير صوت المؤذن يرفع لأداء صلاة العصر لكنه يختتم بإعلان أربك القلوب وهو يتردد على أسماعنا " الصلاة في بيوتكم" ...نداء للبقاء في البيوت خشية من وباء فاتك.

حزنت لأننا لن نسمع بعد الآن خطوات المصلين وهم يهرولون للصلاة، لن نسمع صلاة التراويح وهي تعطر بآياتها ليالينا وتملؤنا سكينة وطمأنينة، لن يتدافع الأحفاد على باب الدار القديمة بعد الإفطار بغية تقبيل الجدة والحصول على حبة الزلابية التي تخبئها بصحنها المدفون خلف وسادتها.. وشاي منتصف الليل العبق بالنعناع الذي يجمع الأحبة هو الآخر سيغيب هذه السنة، إنه رمضان الحَجْر الذي يمنع الجيران حتى من تبادل الحريرة المتبلة بالحشائش الصحراوية، ليظل لكل منزل نكهته وطبيخه الذي يبادله مع جاره...أو تلك الدقات التي تفاجئ الباب قبيل الآذان لأهل نزلوا ضيوفا بلا مواعيد، حاملين معهم فطورهم لأجل أن يكتمل اجتماع أفراد العائلة على نفس الطاولة، لا يهم الإعلان عن موعد الزيارة فرمضان ضيف عزيز وضيوفه

كذلك، الكل يفطر في رمضان وكل قليل سيشبع العائلة مهما كثر عددها...إنها ببساطة "بركة رمضان".

ها هي سنة 2020 ترحل بكل ما خلفته فينا من خوف وقلق، ما عدنا نقبل بعضنا كما السابق ، ولا نتصافح إلا بحذر وخوف، نعبر الشوارع وجلين ورائحة الموت تخترق القنوات بالتلفاز فيتردد صداها عبر النوافذ لتزيدنا حرصا على اتخاذ التدابير الصحية ...سنة مرت تغير فيها الكثير من عاداتنا اليومية، اشتقنا لحياتنا القديمة رغم فوضاها، اشتقنا لعبور المصلين نحو المساجد حتى وإن كنا لا نذهب للصلاة فيها لكن كان يريحنا رؤية الرجال يهبون لتلبية النداء، حتى ذلك الاكتظاظ بالمخبزة وبمحطة الحافلات الذي كان يزعجنا صرنا نتمنى عودته، لن نتذمر منه أبدا يكفينا أن يختفي الوباء من حياتنا لنتقبله بصدر رحب .سنة كاملة فقدنا فيها أحبة وتألمنا لمرض آخرين طالهم الوباء فأقعدهم.

ها هي سنة 2021 تقبل مشرعة أبواب التفاؤل ليرفع عن بلادنا الحجر الصحي الذي حجر أيضا نفوسنا فضاقت، وكسر عاداتنا الجميلة فصرنا نمارسها بارتباك، ها هي الصلاة بالمساجد تعود إلينا بعد أن اختفت الجملة التي كنا نسمعها على مضض

"الصلاة في بيوتكم "لنتنفس اليوم هواء الإيمان من جديد ونعانق بقلوبنا وأرواحنا مساجد أحيائنا التي أقفلت قرابة السنة.

ها هو رمضان يطلق أول بشارة بعودة صلاة التراويح وعودة الحياة الرمضانية بكل قداستها وطقوسها التي نعشقها حد الذوبان فيها وفي رهبة لياليها، إنه أول أيام رمضان وأول أيام المصالحة مع النفس، ذلك العالم الروحاني الذي نلجه بغية التطهر من ذنوبنا وأخطائنا بمراجعة أنفسنا كلما أقبل بنوره هذا الشهر المبارك الفضيل .

عبرت الشارع بعد عودتي من العمل، كان الوقت عصرا متبلا بحشائش الحريرة، وروائحها الزكية التي تنتشر بالأحياء ، ممزوجة برائحة خبز المطلوع هي الأخرى تزاحم بالشوارع، الناس يغدون ويروحون حاملين أكياس الحليب ومقتنيات المائدة الرمضانية، وطاولات الزلابية والشامية تناثرت بشوارع المدينة المختلفة، مثلهم اقتنيت ما كان ينقصني ورحت أسارع الخطى نحو منزلي وفي ذهني صورة لصلاة التراويح بمسجدنا الأخضر العتيق وهو يمتد بصومعته العالية مزينة أقواسه بالمصابيح الملونة ليلا .

قبيل الإفطار عادت تلك الطرقات الخفيفة على الباب وأطفال الجيران يحملون أطباق الحلوى مختلفة الأشكال فبادلناهم إياها بأطباق من صنعنا، مضى أول إفطار لرمضان رجونا الله أن يكون خيرا علينا وعلى الأمة الإسلامية ورحت أستعد لأن تطأ قدماي أرض مسجدنا الأخضر العتيق .لبست عباءتي أحكم حزامها، وخماري الذي لففته بعناية، دون أن أنسى حمل الفانوس البني الذي أهدتني إياه صديقتي فتحية قبيل رمضان، خرجت وأختي الصغرى يسبقنا والدي إلى المسجد كالعادة ، رجال ونساء من مختلف الأعمار تسبقهم تهاني الإفطار فلا تسمع غير "صحا فطورك "تتردد برضا بينهم وأسئلة اطمئنان على مرور أول أيام الخير بخير.

كنا التقينا جاراتنا وبادلناهن تحية الإفطار سائلين عن الصحة والحال إلى أن صرنا عند باب المسجد. رفعت الفانوس أفتش بين الوجوه عن الملامح الطفولية لصديقتي، رأيتها تطوي ذراعها لوالدتها وهي تساعدها على عبور العتبة، أسرعت نحوهما لتستعينا بضوء فانوسي على تخطي العتبة، قبلت رأس والدتها وسلمت على صديقتي فتحية ثم ولجنا نحن الثلاثة داخل المسجد ودعوات والدة صديقتي التي أناديها خالتي تغمرني فرحا و انشراحا

رافعة كفيها إلى السماء ....كانت دعت لي ولفتحية ونحن وراءها نؤمن معا بصوت واحد " آمين"، ثم اتخذت لها مكانا بين صفوف المصليات بعد أن نزعت حذاءها فتحية، بينما وقفت أنا عند بهو المسجد وبصري للسماء أفتش عن بقايا الدعاء، كانت فتحية تنبهت لشرودي، نادتني وهي تحجز لي مكانا بجانبها مشيرة بيدها و بصوت خافت أن تعالي، ابتسمت وأسرعت بالجلوس، وشوشت بأذنها " لقد رأيت دعاء خالتي يعبر بوابة السماء "مثلي ابتسمت وهي تقبل بعينيها الفانوس الذي وضعته أمامنا، ليرفع الآذان بعد أكثر من سنة، فعم المسجد خشوع رهيب....

الفهرس

تقديم...05

مشبك الحياة...10

عبق من الماضي...18

شموخ نخلة...24

هي المرأة السمراء...واهبة الحياة في الصحراء.................29

عالم الرجل الأزرق...34

زورق النجاة... رحلة نحو الأمل والحياة.........................43

وشوشات الأنامل ...حديث الروح.................................48

الطيورعلى أشكالها تقع..54

زهرة النار..57

المادة 64...64

فانوس رمضان 2021...71